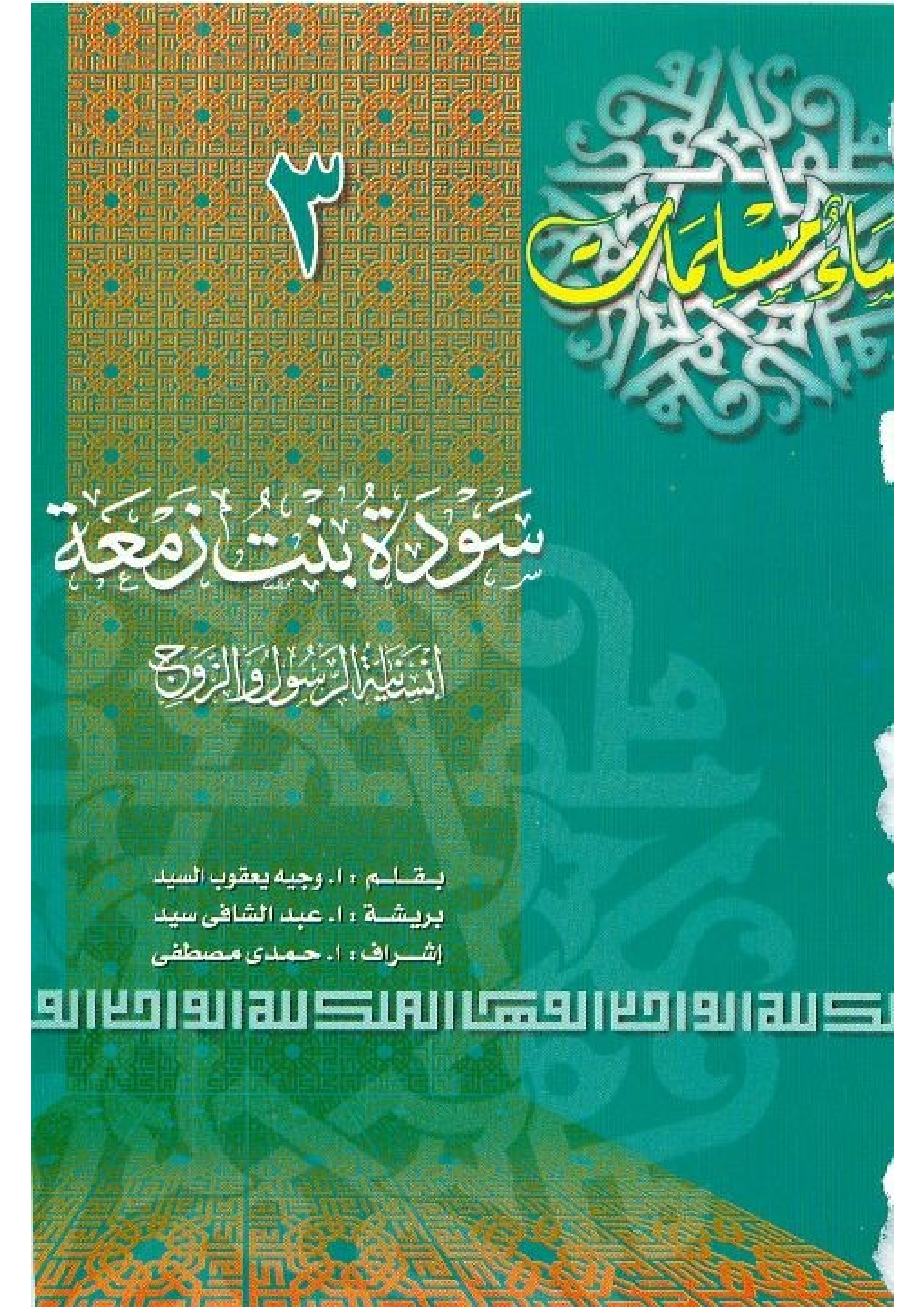

ساء مسلمات
٣
سودة بنت زمعة
إنسانية الرسول والزوج
بقلم : ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

تركتْ وفاةُ السيدةِ (خديجةَ بنت خُويلد) فراغاً كبيراً في نَفْسِ الرسولِ ﷺ ، فقدْ كانتْ نعمَ الأنيسُ ، الذى يُواسي النبيَّ ﷺ ويُخففُ عنه آلامَهُ ويشدُّ من أزْرِه .

وتساءلَ الصحابَةُ بعدَ موتِ (خديجةَ) :

ـ هلْ يبقَى الرسولُ ﷺ بِلا زوجَةٍ بعدَ وفاةِ أمِّ المؤمنينَ (خديجةَ بنت خويلد) ؟

وانطلقتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ السلميَّةُ) إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ لتُفاتحَهُ فى موضوعِ زواجِهِ ، فقالتْ له فى تلطُّفٍ ورفقٍ :

ـ يارسولَ اللَّهِ ، كأنِّى أراكَ قدْ أصابَتْكَ وَحْشَةٌ لفقدِ (خديجةَ) !

فقالَ النبىُّ ﷺ فى تأثُّرٍ :

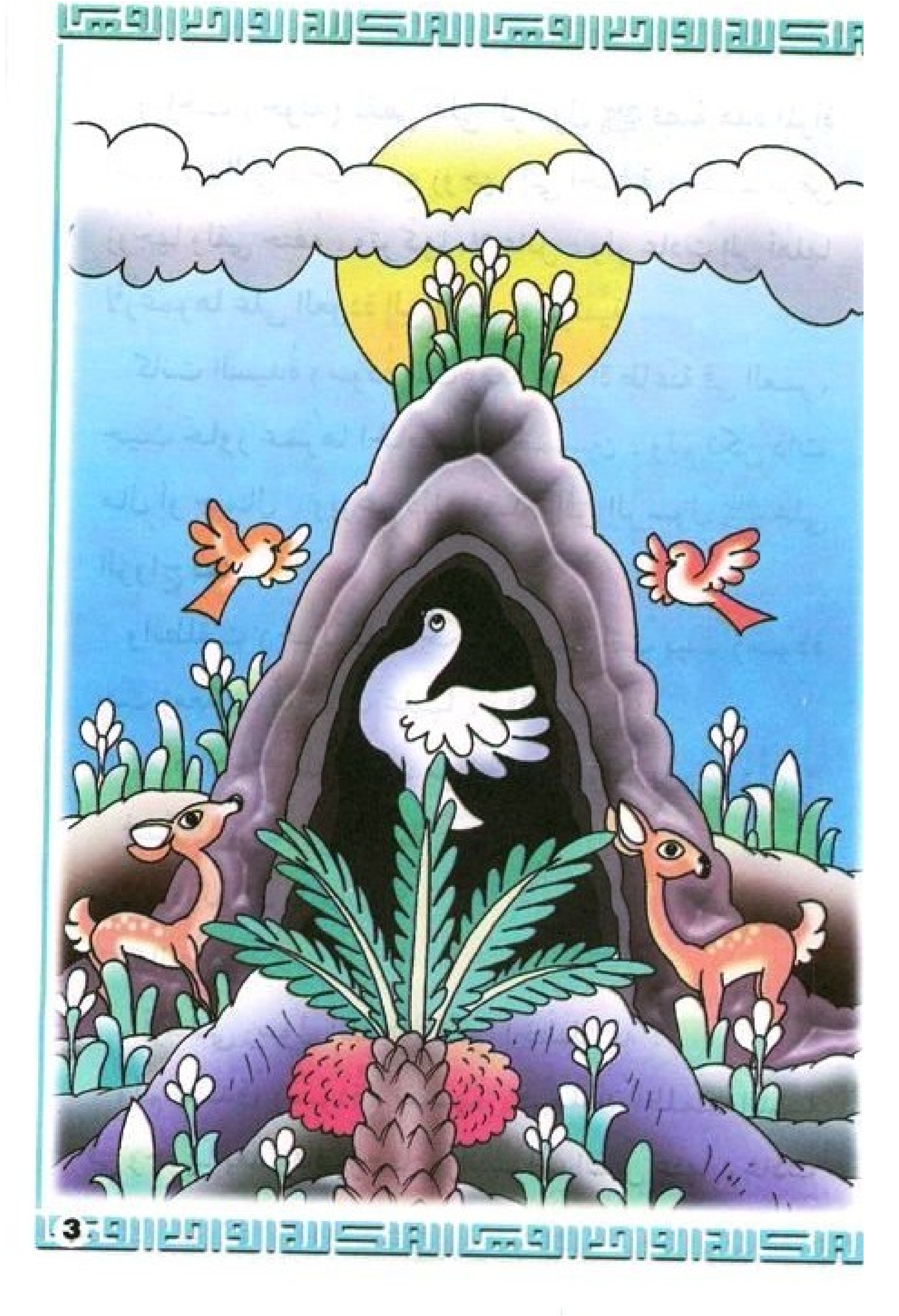
ـ أجلْ ، كانتْ أمَّ العيالِ وربَّةَ البيتِ .

وانتهزَتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ) الفرصةَ ، وقالتْ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، أفلا أَخْطُبُ لَكَ ؟

وسألَها الرسولُ ﷺ عمَّنْ تَقْصِدُها (خولَةُ) ، فقالتْ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، أخْطُبُ لَكَ (سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ) ، أرملةَ السكرانِ بنِ عمروٍ الأنصاريِّ ......



وراحَتْ (خولَةُ) تَقُصُّ على الرسولِ ﷺ قصَّةَ هذه المرأَة المجاهدةِ ، التى هاجرتْ مع زوجِها إلى الحبشةِ ، وهناك مَرِضَ زوجُها ولقِيَ حتفَهُ ، وتركَها بلا عائلٍ ، ولو عادتْ إلى أهْلِها لأرْغَمُوها على العودةِ إلى الكفرِ والوثنيَّة .

كانَت السيدةُ (سودةُ بنتُ زمعةَ) امرأةً طاعنةً فى العمرِ ، حيثُ تجاوزَ عمرُها الخامسةَ والخمسينَ ، ولم تكنْ ذاتَ مالٍ أو جمالٍ ، وبرغمِ ذلكَ فقدْ وافقَ الرسولُ ﷺ على الزواجِ بها .

وانطلقتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ) حتَّى أتتْ بيتَ (سودةَ بنتِ زمعةَ) ، فدخلتْ عليها ، وقالتْ لها :

ـ ماذا أَدْخلَ اللَّهُ عليكِ من الخيرِ والبركةِ يا (سودةُ) ؟

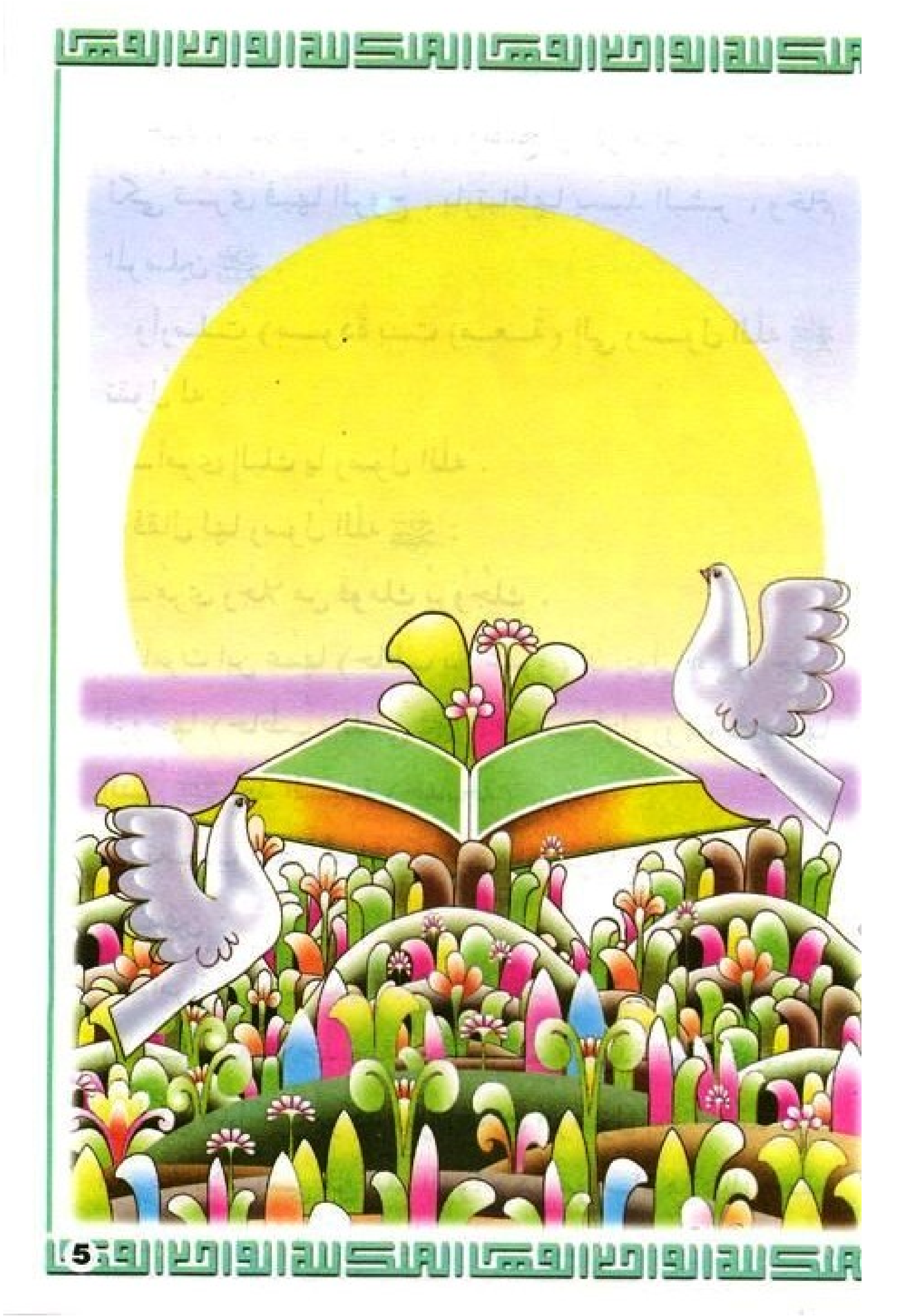
فسألَتْ سودةُ فى دهشةٍ :

ـ ماذا لديكِ يا خولةُ ؟

فقالتْ :

ـ أرْسلنى رسولُ اللَّه ﷺ لكى أخْطُبَكِ له .

ولم تصدِّقْ (سودةُ) نفسَها ، فبعدَ أَنْ أظلمت الدنيا فى وجهِها بعدَ وفاةِ زوجِها ، وانصرافِ الناسِ عنها ، عادت



الحياةُ تبتسمُ لها من جديدٍ ، وتفتحُ لها ذراعيها عن آخرِهما ، لكى تسْرِى فيها الروحُ ، بارتباطِها بسيدِ البشرِ ، وخاتمِ المرسلينَ ﷺ .

وأرسلتْ (سـودةُ بنتُ زمـعـةَ) إلى رسـولِ اللهِ ﷺ تقولُ له :

ـ أمرى إليكَ يا رسولَ اللهِ .

فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ :

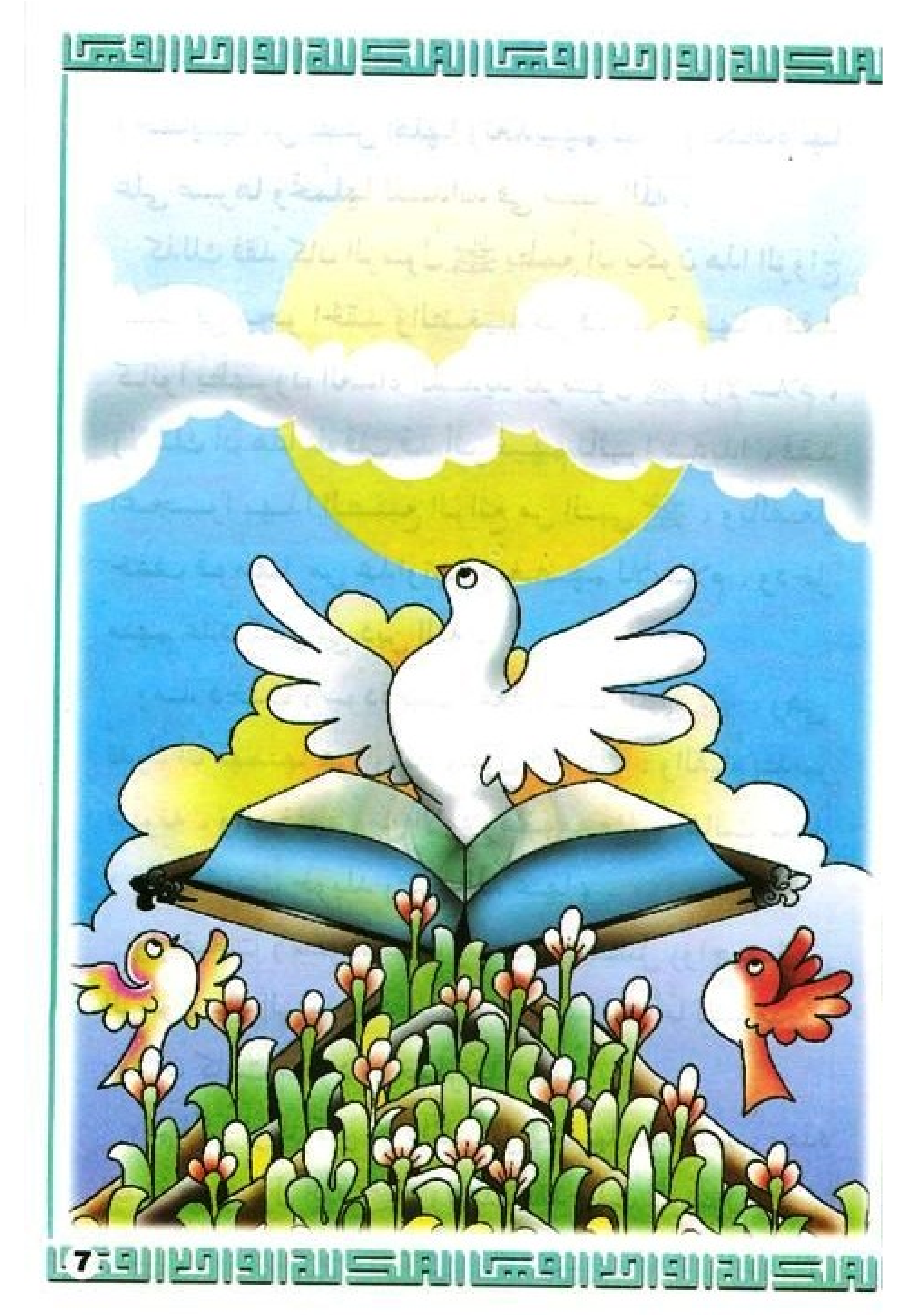
ـ مُرِى رجُلاً من قَوْمِك يُزوِّجُك .

فأمرتِ ابنَ عمِّها (حاطبَ بنَ عمروٍ) أنْ يتولَّى أمرَ زواجِها ، فزوَّجَها (حاطبُ) للنبىِّ ﷺ ، فكانتْ أولَ زوجةٍ يتزوَّجُها النبىُّ ﷺ بعدَ السيدة (خديجةَ) .

وتعجَّبَ بعضُ أهلِ مكَّةَ مِنْ هذا الزواجِ ، وقالوا غيرَ مُصدِّقِينَ :

ـ امرأةٌ فى هذا العمرِ ، غيرُ ذاتِ مالٍ ولاجمالٍ ، يتزوَّجُها (محمدٌ) بعد (خديجةَ بنتِ خويلدٍ) سيدةِ نساءِ قريشٍ ؟

لكنَّ هذا كانَ يُؤكِّدُ نبلَ أخلاقِ الرسولِ ﷺ ، فقدْ كانَ الغرضُ الأساسىُّ مِنْ هذا الزواجِ هو مواساةُ هذه الزوجةِ ،



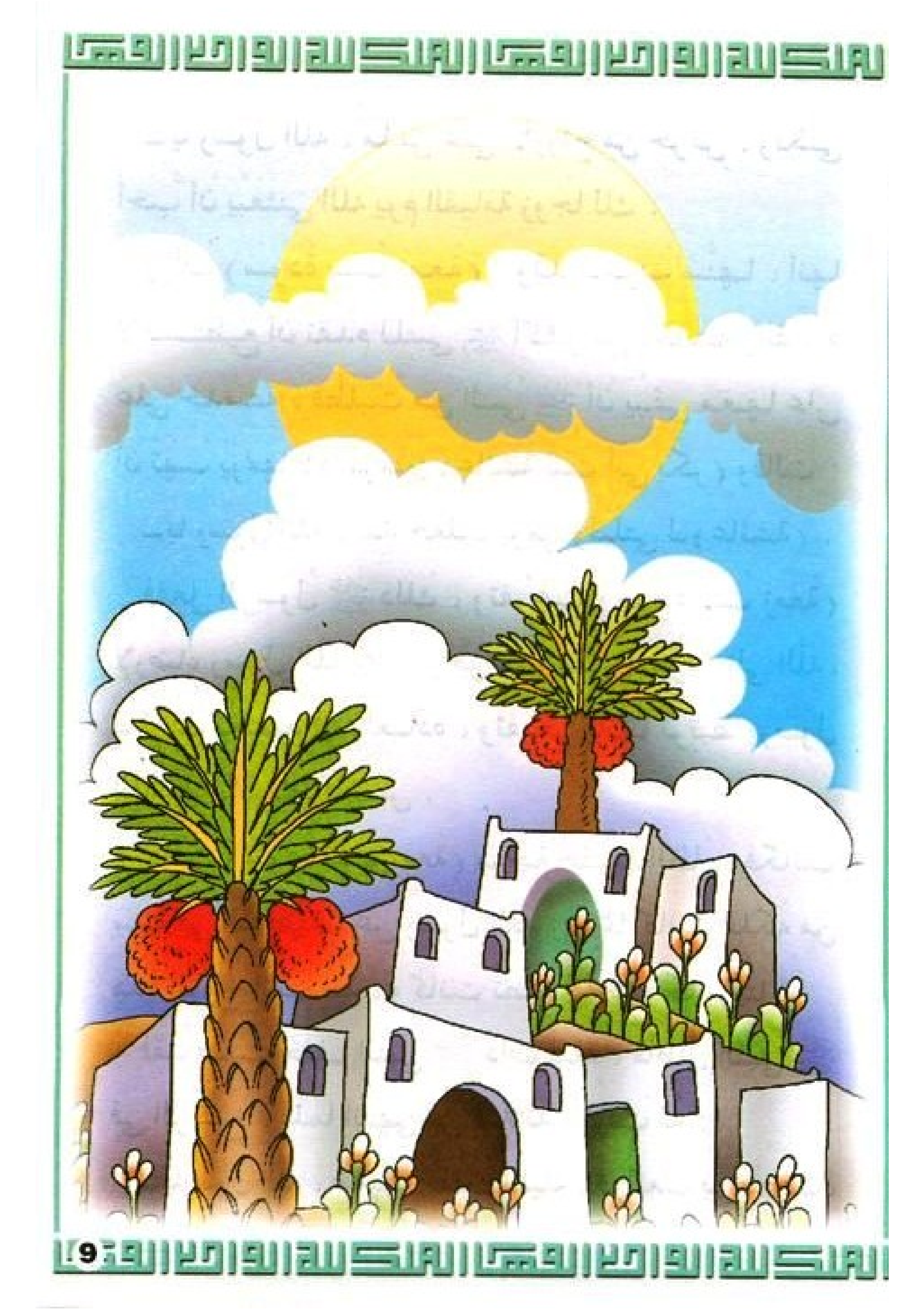
وحمايتُها من بطشِ أهلها وتعذيبهم لَهَا ، ومكافأةً لها على صبرِها وتحمُّلها للشدائد فى سبيلِ اللَّه .

كذلكَ فقدْ كانَ الرسولُ ﷺ يطْمَعُ أنْ يكونَ هذا الزواجُ سببًا فى محوِ الحقد والضغينة من قلوب قومها ، فقدْ كانُوا يُظْهِرُونَ العداءَ الشديد للرسول ﷺ والإسلامِ ، ولاشكَ أنَّ هذا الموقف قد أثَّر فيهم تأثيرًا شديدًا ، فقدْ أُعْجِبُوا بهذا الصنيعِ الرائعِ من النبىِّ ﷺ ، وبالفعلِ خفَّفَ قومُها من عداوتهم وبغْضِهم للإسلامِ ، ودخل منهم عددٌ كبيرٌ فى دينِ اللَّه .

ومنذُ دخلتْ (سوْدَةُ بنتُ زمعةَ) بيتَ النبىِّ ﷺ ، وهى تُدركُ أنَّ مهمتَها هى إرضاءُ رسول اللَّه ﷺ ، والقيامُ بتدبيرِ شئونه ، والتخفيفُ من آلامه وهمُومه مثلما كانتْ تفعلُ (خديجةُ بنتُ خويلد رضىَ اللَّهُ عنها) .

وارتفعَتْ (سوْدَةُ بنتُ زمعَةَ) بفضْلِ زواجِها من الرسولِ ﷺ إلى مرتبة عالية ، حيثُ صارتْ أُمًّا للمؤمنينَ ، بعدَ أنْ كانتْ مجردَ زوجة لرجلٍ منهُمْ .

ولم تكنْ تريدُ أكثرَ من ذلكَ ، بلْ يكفيها هذا النسبُ وهذه الصلةُ مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ ، ولذلكَ فقدْ قالتْ للرسول ﷺ :



ـ يا رسولَ اللَّه ، ما بى على الأزواجِ منْ حرصٍ ، ولكنّى أُحبُّ أنْ يبعثَنى اللَّهُ يومَ القيامةِ زوجًا لك .

ورأتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) ، وقد كَبِرَتْ سنُّها ، أنها لا تستطيعُ أنْ تُقدّمَ للنبىِّ ﷺ أكثرَ من رعايتِه والقيامِ على خدمتِه ، فطَلَبَتْ من النبىِّ ﷺ أنْ يَبْقَى معها على أنْ تَهَبَ يومَها لأمِّ المؤمنين (عائشةَ بنت أبى بكرٍ) وقالتْ :

ـ يا رسولَ اللَّه ، لقدْ جعلتُ يومى وليْلَتى لـ (عائشةَ) .

ففعلَ الرسولُ ﷺ ذلكَ ، وتفرَّغَتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) لإرضاء رسولِ اللَّه ﷺ ، وحَرَصَتْ على التقرُّبِ إلى اللَّه ، فراحَتْ تجْتَهِدُ فى العبادةِ ، وتفتخرُ بأنها ترتبطُ برسولِ اللَّه ﷺ بالرباط المقدسِ .

كانتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) مَرحةً خفيفةَ الظلِّ ، فكانتْ سببًا فى التخفيفِ عن رسولِ اللَّه ﷺ بما كانتْ تملكُهُ من هذه الروحِ السمحةِ ، وكانتْ تُضْحكُهُ ضحكًا بريئًا .

فقدْ صلَّت خلفَ النبىِّ ﷺ ذاتَ لَيْلَة ، فأطالَ النبىُّ ﷺ فى الركوعِ ، فلما انتهى من صلاتِه ، قالتْ لَهُ :

ـ يارسولَ اللَّهِ ، صليتُ خَلفَكَ الليلةَ ، فركَعْتَ بى فأطلتَ ،



حتَّى أمسكتُ بأنفى مخافةَ أنْ يقطرَ الدمُ .

وكانتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) طيبةَ القلبِ إلى درجةٍ كبيرةٍ ، فكانتْ تتصرَّفُ بعفويةٍ شديدةٍ ، دونَ أن تقصدَ شيئًا أو تتعمدَهُ .

فبعدَ أنِ انتهتْ غزوةُ بدرٍ ، وجاءَ المسلمونَ بالأَسْرى ، ورأتْ (سَودةُ) (سُهيلَ بنَ عمروٍ) ـ وهو أخُو زوجِها السابقِ ـ فى الأَسْرِ ، ورأتْ يديهِ مربوطةً إلى عُنُقِهِ بحبلٍ ، فلمْ تملكْ نفسَها أنْ توجِّهَ إليه الكلامَ قائلةً :

ـ يا أبا يزيد، أسلمتُمْ أنفسَكُمْ وأعطيتُمْ بأيديكمْ، ألا مُتُّمْ كِرامًا !

وسَمِعَها الرسولُ ﷺ فناداها من البيتِ ، وقالَ لها :

ـ أعلى اللَّهِ (عزَّ وجلَّ) وعلى رسولِه تُحرِّضِينَ ؟

فأجابتْ قائلةً :

ـ يا رسولَ اللَّه ، والَّذى بعثَكَ بالحقِّ ، ما ملكتُ نفسى حينَ رأيتُ أبا يزيدٍ ، مجموعةٌ يداهُ إلى عُنُقِهِ ، أنْ قُلْتُ ما قُلْتُ !

وكانَ الرسولُ ﷺ يَعْلَمُ فيها هذه الصفةَ ؛ ولذلكَ فقد سكتَ عنها ولم يُلِحَّ فى عتابِها .



وعاشَتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) فى بيتِ النبىِّ ﷺ ، وامتدتْ بها الحياةُ حتَّى زمنِ (عمرَ بنِ الخطابِ) ، فماتتْ فى آخرِ خلافةِ (عمرَ) .

وحَزِنَتْ من أجلِها (عائشةُ الصدِّيقةُ رضِىَ اللهُ عنها) ، وتذكَّرتْ قلبَها الطيبَ الرقيقَ ولسانَها العفَّ النظيفَ ،

كما تذكَّرت حرصَها على إرضاء رسول اللَّه ﷺ بأىِّ صورةٍ ، حتَّى وإنْ كانَ فى ذلكَ تنازلٌ عن حقِّها عن طيبِ خاطرٍ ورضا نفسٍ .

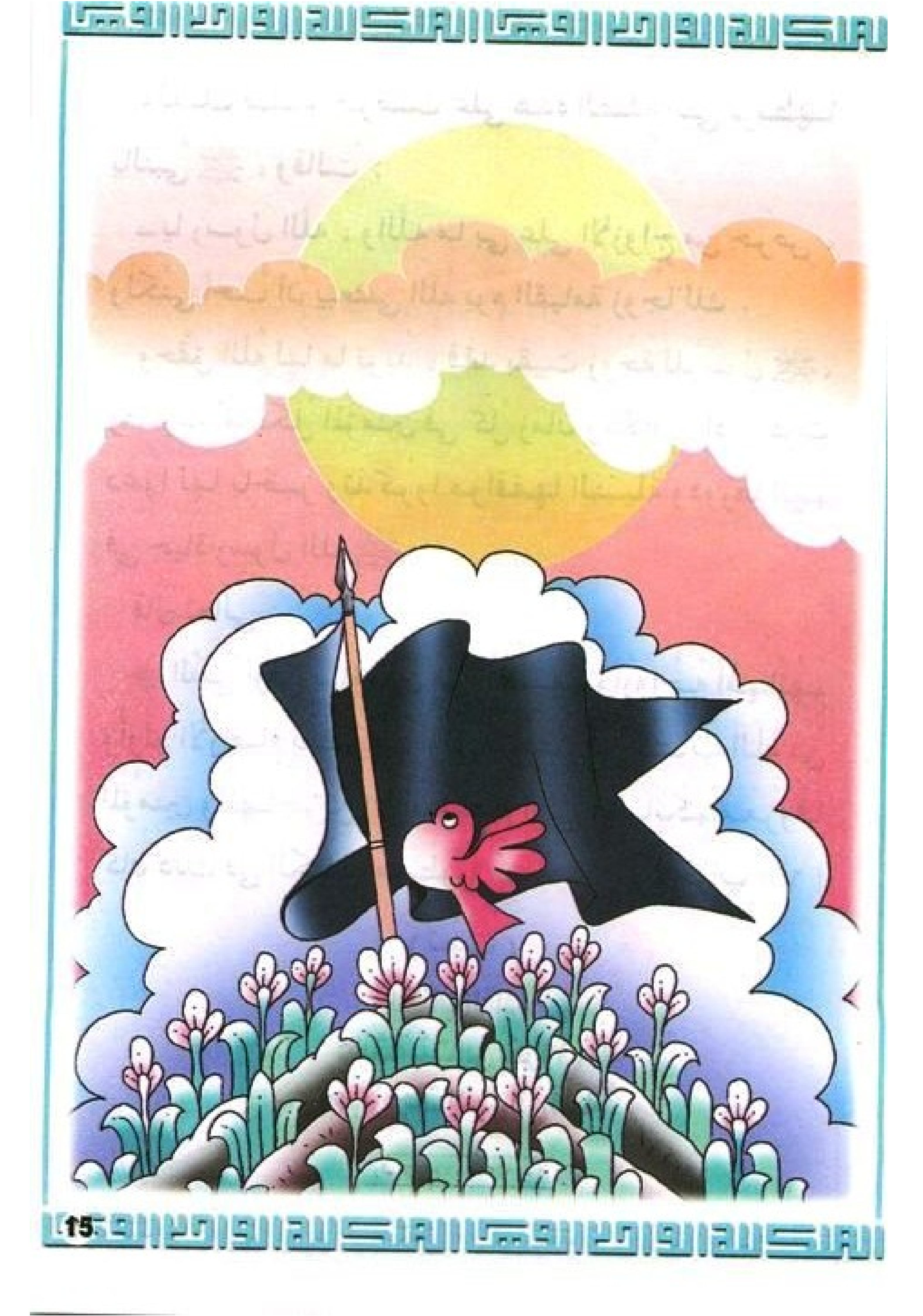
وقالت (عائشةُ) وهى تودِّعُها إلى مثواها الأخيرِ :

ـ ما منِ امرأة أحبَّ إلىَّ أَنْ أكونَ معها من (سودةَ بنت زمعةَ) ! لـمَّا كَبِرَتْ ، قالت :

ـ يا رسولَ اللَّه ، قدْ جعلتُ يومى منكَ لـ (عائشة) !

رَحِمَ اللَّهُ السيدةَ (سَوْدَةَ بنت زمعةَ) ، الَّتى كانتْ مثالاً للتضحية والفداء ، فقدْ هاجرتْ هى وزوجُها إلى الحبشةِ فى سبيلِ اللَّه ، وتحمَّلتْ بشجاعةِ الموقفِ وأثبتتْ أنها جديرةٌ بحبِّ المسلمينَ وثقةِ رسولِ اللَّه ﷺ .

وعندما انتقلتْ إلى بيتِ النبىِّ ﷺ ، عرفتْ كيفَ تقومُ بدورِها كزوجةٍ ترعَى زوجَها وتُخفِّفُ عنه آلامَهُ وهمومَه ، وكمؤمنةٍ صادقةِ الإيمانِ لا يعرفُ الشكُّ سبيلاً إليها ، وكأمٍّ للمسلمينَ حرَصتْ على أنْ تبقَى مجرَّدَ زوجةٍ تقومُ على خدمةِ الرَّسولِ ﷺ ، ولا تتطلَّعُ إلى أكثر من ذلكَ ، فقدْ كانتْ تُدْرِكُ أنَّ الارتباطَ ـ مجردَ الارتباطِ ـ برسولِ اللَّهِ ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريفٌ .



ولذلكَ فقدْ حرَصَتْ على هذه الصلَةِ التى تربطُها بالنبىِّ ﷺ ، وقالتْ :

– يا رسولَ اللَّهِ ، واللَّه ما بى على الأزواجِ من حِرْصٍ ، ولكنِّى أحبُّ أنْ يبعثنى اللَّهُ يومَ القيامة زوجًا لك .

وحقَّقَ اللَّهُ لها ما تريدُ ، فقد بَقِيَتْ زوجةً للرَّسول ﷺ ، وصارتْ أُمًّا لكلِّ المؤمنينَ فى كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، إذا ذُكِرَتْ دَعَوْا لها بالخيرِ وتذكَّرُوا مواقِفَها النبيلةَ ودورَها المهمَّ فى حياة رسولِ الله ﷺ .

قالَ تعالَى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ . [الأحزاب : ٦]

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

عائشة بنت أبى بكر (١)

أحب زوجات النبى إلى قلبه

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٢١٣٨